

كتاب من أعماق الصلاة

– مقدمة

– الله أكبر

– سورة الحمد

– سورة التوحيد

– التسبيحات الأربعة

– الركوع

– السجود

– التشهد

– سلام الصلاة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة والمناجاة هي الرابطة الوثيقة بين الإنسان وربّه، بين المخلوق وخالقه. الصلاة هي المهدى والباعث على اطمئنان القلوب المضطربة والمتعبة، والمنزّهة للباطن والمنيرة لروح الإنسان. إنها الباعث والميثاق للتحرك والاستعداد، بنحو واقعي بعيد عن التلون والخداع، للتخلص ممّا هو سيّئ وردّي، والتزود بكل ما هو صالح وجميل، وهي برنامج للعثور على النفس ومن ثمّ صناعتها وتهذيبها. وبكلمة موجزة: هي رابطة وإفاضة دائمة مع منبع ومظهر كل ما هو جميل، مع الله. لماذا عدت الصلاة أفضل وأهم من جميع الواجبات، واعتبرت أساس الدين وعموده؟ لماذا تردّد جميع الأعمال من دونها؟ ما هو السرّ الخارق الكامن فيها؟ بوسعنا ملاحظة الصلاة من أبعاد مختلفة:

أولاً: لا بدّ من الإشارة إلى الهدف من خلق الإنسان، إلى الشيء الذي يعدّ من الخطوط الأساسية في الرؤية الكونية للإسلام، كون الإنسان مخلوقاً، والاعتقاد بأن هناك قدرة حكيمة أوجدته، يستلزم أن يكون هناك هدف وقصد من خلقه وإيجاده.

يمكن أن نعدّ هذا الهدف قطع مسافة للوصول إلى محطة، قطع طريق بواسطة مخطط دقيق وبوسائل معينة للوصول - في النهاية - إلى تلك المحطة وذلك المنزل، وفي هذه الصورة لا بد لنا من تعرف الطريق المنتهي إلى تلك الغاية، وتحديد المسير وجعل الهدف دوماً نصب أعيننا، لنتمكن من بلوغ تلك النتيجة الموعود بها. إنّ الذي يضع قدمه على الطريق، لا تشغله الطرق الملتوية والحركات التي تعيقه عن الاتجاه الصحيح؛ ولأجل حفظ الاتجاه الصحيح عليه أن لا يتمرد على أوامر القائد والمرشد (الرسول) الذي عيّن له. وذلك الهدف هو رفعة الإنسان وتكامله اللامتناهي، والعودة إلى الله، وبروز الخصال الحسنة فيه، وتفجير طاقات الإنسان وقابلياته الكامنة، وتوظيفها بأجمعها في طريق إصلاح نفسه والعالم والإنسانية.

على الإنسان - إذن - أن يعرف الله، وأن يسلك الطريق الذي حدّده الله لتساميه، دون أيّ تباطؤ أو تألُّ. إنّ ما يجعل معنى لحياة الإنسان هو أن يفعل الأشياء التي تقربه من هدفه، وأن يتجنب كلّ ما يضره، أو يعيقه عن الهدف؛ هذه هي فلسفة الحياة، ودونها تغدو الحياة تافهة لا معنى لها.

وبعبارة أخرى: إنّ الحياة مدرسة ومختبر لا بدّ أن نطبق فيها جميع القوانين والنظريات التي أوجدها خالق العالم والحياة، ليمكن الوصول إلى نتيجة عالية ومرضية. هذه القوانين التي هي سنن الله في خلقه، يجب معرفتها وصياغة حياتنا وفقاً لها، ولا بد أيضاً من معرفة النفس واستكشاف ذخائرها واحتياجاتها. تلك هي مسؤولية الإنسان وواجبه العظيم الذي بمجرد أدائه يكون الإنسان قادراً على التحرك الواعي الناجح، ولولاه لا يمكن التحرك، أو يكون عن غير وعي، فلا يحالفه التوفيق.

والدين عبر تحديده للهدف والاتجاه والطريق والوسيلة يمنح الإنسان أيضاً القدرة واليزاد الضروري لقطع الطريق، وإنّ أهم متاع يحمله سالكو هذا الطريق هو "ذكر الله"، وإنّ روح الطلب والرجاء والاطمئنان - وهي أجنحة هذا التحليق - إنّما تتفرع وتتولد من ذكر الله.

إنّ ذكر الله يجعل الهدف، وهو الاتصال به تعالى، أي منتهى الكمال والحسن، نصب العين دوماً، ويحول دون الضياع، ويجعل السائر حاسماً وحذراً بالنسبة إلى الطريقة والوسيلة، ويمنحه قوّة القلب والاطمئنان والنشاط، ويحفظه من الانزلاق والانخداع بالمظاهر الخلابة، أو الخوف من المنغصات.

إنّ المجتمع الإسلامي وكل مجموعة أو فرد مسلم، يمكنه أن يخطو في الطريق الذي حدده الإسلام ودعا إليه جميع الأنبياء، باستقامة ودون توقف أو تراجع إذا لم ينس الله. ومن هنا يسعى الدين جاهداً وبمختلف الطرق والوسائل لإحياء ذكر الله في قلوب المتدينين بشكل دائم.

ومن أهم الأعمال المفعمة بالدوافع لذكر الله، ويمكنها أن تجعل الإنسان مستغرقاً بذكره تعالى، وأن تكون موقظة للإنسان، وشاخصاً وعلامة ترشد السائر إلى الصراط المستقيم، وتحفظه من الضياع والانحراف، وأن تمنع من حدوث لحظة غفلة في حياة الإنسان هي الصلاة.

في غمرة الانشغالات الفكرية التي تعترى الإنسان، نادراً ما يلتفت إلى نفسه، وهدفه في الحياة، أو يفكر بمضي الساعات والأيام؛ فما أكثر الأيام التي تترك مكانها لليل، وللأيام الأخرى التي ستسرع من جديد! ما أكثر الأسابيع والأشهر التي تمضي دون أن يلتفت الإنسان إلى بدايتها ونهايتها، أو يشعر بمضي الحياة ومعناها أو بطلانها!

الصلاة جرس منبّه، ومنذر في مختلف ساعات الليل والنهار، إنها تزود الإنسان ببرنامج وترديد منه عهداً، وتعطي لليلة ونهاره معنى وتشعره بقيمة الزمن. إنّها تدعوه خلال الزمان الذي يكون فيه منشغلاً غير ملتفت إلى مضي الزمن وانقضاء العمر وترشده إلى انقضاء يوم وشروع آخر، وأنّ عليه أن يجدّ ويتحمل مسؤولية أكبر وأن يفعل ما هو أهم؛ لقد انقضى جزء من العمر بلا استثمار فيجب أن يكون أكثر سعياً وعتاءً، إذ إنّ الهدف عظيم، فلنسع لنيله قبل فوات الأوان.

ومن جهة أخرى، فإنّ نسيان الهدف تحت ضغط المشاغل الماديّة هو أمر واضح وطبيعي، وإن إمكانية الوفاء بجميع التعهدات الملقاة على عاتق الإنسان والواقعة في طريق بلوغ الهدف، في كل يوم أمر شبه مستحيل، والسماع ممّن حرفته هذه أشدّ محالاً.

علاوة على ذلك لا يتوفر أبداً الزمن الكافي لنيل جميع متطلبات وأفكار هذه الرسالة - الإسلامية التي تصنع حياة الإنسان وسعادته - في اليوم واللييلة، فهذه فرصة يستحيل أن تقع في متناول اليد.

الصلاة تتضمن خلاصة أصول هذه العقيدة، وما فيها من الأقوال والحركات المتناسقة والمنظمة هو علامة الإسلام.

بوسعنا تشبيه الصلاة بالسلام الوطني للدول، مع فارق في المعنى ونوع العطاء، لأجل أن ترسخ الدولة أصولها ومبنياتها الفكرية في ذهن الشعب، وبناءه على هذا النمط الفكري، تعتمد إلى تكرار قراءة السلام الوطني الذي يمثل خلاصة الشكل المقبول لنمط الحياة وأهدافها لدى الدولة.

تكرار السلام الوطني سبب لتثبيت الناس على هذا النحو من الفكر، وتلقينهم أنهم أتباع هذا الوطن، والسائرون باتجاه تلك الأهداف؛ إذ إنّ نسيان أصول وأهداف الدولة، يعني تغيير المسار وعدم انتباهه. هذا التكرار يجعلهم مستعدين للخدمة في هذه الجبهة، ويعلمهم المخططات والطرق، ويرشدهم إلى المسؤوليات والواجبات ويحيي في أذهانهم أسس الدولة، ويعين لهم الوظيفة، ويزودهم - حينئذ - بالشجاعة والجرأة والإقدام، ويهيئهم للعمل.

الصلاة خلاصة أصول العقيدة الإسلامية، والمضيئة لطريق المسلمين، والمرشدة إلى المسؤوليات والتكاليف والطرق والنتائج.

الصلاة دعوة للمسلم في مطلع النهار، وفي أثنائه، وعند الليل، وإفهامه على لسانه للأسس والطريق والهدف والنتيجة ودفعه إلى العمل بقوة معنوية. هذه هي الصلاة، إنها تأخذ بالإنسان خطوة فخطوة ودرجة فدرجة حتى تصل به إلى قمة الإيمان، والعمل الكامل، وتجعل منه عنصراً ذا قيمة ومسلماً سوياً. أجل، الصلاة هي معراج المؤمن.

إنَّ أمام الإنسان طريق طويل وشاق يؤدي به إلى الاستقامة والواقعية، ويوصله إلى ذلك الهدف الذي وجد من أجله، ولكن هذا الطريق ليس هو الوحيد الذي وضع أمام البشر، فهناك أيضاً الكثير من الطرق الملتوية والمنحرفة والخطرة تعتري طريقه الرئيسي، وأحياناً تكون هذه الطرق خلابة جداً بحيث توقع المجتاز في حيرة وتردد في تمييز الطريق الصحيح.

فلا بد - لأجل التخلص من هذه الحيرة - من الحفاظ على الموجه الصحيح نحو الهدف والمقصود النهائي، أي نحو الله، وأن نمثل مخططاً للطريق والمسار؛ وما الصلاة إلا موجه دائم نحو الله ومخطط إجمالي للطريق الأصلي. إذن الصلاة هي المؤمن للارتباط الدائم والاتصال الدائب للمؤمن بالله، وقد أدرج ضمنها مجمل التفكير الإسلامي.

وبذلك تتضح علة توزيع الصلاة على هذه الأوقات الخمسة ومدى أهميته، إنه كتوزيع وجبات الطعام على أوقات الليل والنهار المختلفة.

ومع غضّ النظر عن احتواء الصلاة على خلاصة أهداف الإسلام وغاياته، وأن تلاوة القرآن أيضاً من الأعمال الواجبة في الصلاة، لأنها تعرّف المصلي ببعض مضامين القرآن وتعوده التفكير في مفاهيم القرآن والارتباط به فكرياً، فالصلاة أساساً بمجموع حركاتها تعدّ مظهراً ومثالاً مصغراً للإسلام.

الإسلام في صميم الأمة يحث الجسم والفكر والروح الإنسانية على العمل، ويستخدم هذه الثلاثة بأجمعها لإسعادها، والصلاة أيضاً تصنع هذا الشيء نفسه مع الفرد، إذ إنه عند الصلاة يكون كلّ من جسمه وروحه وفكره في حال العمل والفعالية:

الجسم: بحركات اليدين والرجلين واللسان والركوع والجلوس والسجود.

الفكر: بالتفكير في مضامين ألفاظ الصلاة التي تشير عموماً إلى الأهداف والوسائل واجتياز دورة من التأمل والرؤية الإسلامية بشكل مجمل.

الروح: بذكر الله والتحليق في جوّ من المعنويات الروحية، ومنع القلب من الركون إلى التفاهات والفراغ، وغرس بذرة الخشوع وخشية الله في الروح.

قالوا: إنَّ الصلاة في كل دين هي خلاصة ذلك الدين، وصلاة الإسلام كذلك تماماً.. الجمع بين الروح والجسم، بين المادة والمعنى، بين الدنيا والآخرة، سواء في اللفظ أو في المحتوى أو في الحركات، من خصوصيات الصلاة الإسلامية.

كذلك المسلم في الصلاة عندما يقيمها بشكل كامل فإنه يعمل بجميع طاقاته في طريق تعاليه، يعني أنه يستعمل في آن واحد جميع امكانياتها الجسمية والفكرية والروحية في هذا الأمر.

إنّ مقيم الصلاة كما أنه يوظف جميع قواه بحثاً عن طريق الله، فإنه يميت جميع بواعث الشر والفساد والانحطاط في ذاته.

في عدّة آيات من القرآن عدّت إقامة الصلاة من علامات التدين، واستند في أكثر الآيات إلى إقامة الصلاة. يظهر أنّ إقامة الصلاة شيء أكثر من امتثالها، أي أنّها ليست فقط أن يقوم الشخص بامتثال الصلاة وأدائها، بل هناك أيضاً الاسترسال نحو الجهة والناحية التي تدعو إليها الصلاة، وبعث الآخرين نحوها. قالوا: إقامة الصلاة، أن يعيش المصلي ومن حوله أجواء المصلين، أي الباحثين عن الله وعبادته، ويحيا الجميع في خط الصلاة وجهتها.

فالمؤمن - إذن - والأمة المؤمنة بإقامتها للصلاة تحرق جذور الانحطاط والمعاصي والفساد في النفس والمحيط الاجتماعي، وتميت النزوع إلى ارتكاب المعاصي وبواعثه الداخلية والخارجية (العوامل النفسية والبيئية). حقاً إنّ الصلاة تحول بين الفرد والمجتمع وممارسة الأعمال الصالحة والرذيلة: {إنّ الصلاة تنتهي عن الفحشاء والمنكر}.

في ساحة النزاع وصراع الحياة، هناك حيث استعدت جميع قوى الشر بجميع ما لديها من مكائد، لكي تعدم بواعث الصلاح والاحسان في كل مكان وفي كل شخص، فإن أول سد يقوم بصد الهجوم وتدميره هو قوّة العزم والقدرات النفسية للبشر، إذ بتحطيم هذا السدّ المنيع يغدو من اليسير احتلال قلعة شخصية الإنسان ونهب كنوزها التي تحفظ فيها أصالة الإنسان الذاتية ومدخراتها من القيم والمعارف والعلوم.

وأولئك الذين يحملون هتافاً جديداً ومخططات بديعة للزمان وللتاريخ، هم أكثر من غيرهم عرضة لهجوم قوى الشر، وهم بحاجة أكثر من غيرهم إلى حفظ هذا الحصن الفولاذي، حصن العزم والإرادة التي لا تقهر.

إنّ صلاة الإسلام بما فيها من تلقين وتكرار لذكر الله، تربط الإنسان الضعيف والمحدود بالله المطلق المسيطر، وتجعله مستعيناً به؛ وعن طريق ربط الإنسان بمدير العالم، يصنع منه قدرة غير محدودة ولا زائلة. ويجب عدها أفضل علاج لضعف الإنسان، وأنفع دواء للعزم والإرادة.

إنّ الرسول الأكرم (ص) الذي كان يشعر بثقل المسؤولية في مجال التغيير الإسلامي العظيم أمام الجاهلية المستشرية، أمر بالصلاة في منتصف الليل {يا أيّها المزمّل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً * إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً}.

ندخل الآن في بيان محتوى الصلاة، ودون أن نخرج عن محتوى الترجمة الواسعة، نسعى للإقتراب من هدف الصلاة من الناحية التربوية.

تبدأ الصلاة باسم الله، وذكر عظمته وسعة ذاته، وأنّها أسمى من كل ما يتصوره الإنسان.

إنّما أمر الناس بالصلاة وأن يقرأوا القرآن فيها لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيقاً، وليكون مدرّساً فلا يضمحل ولا يجهل، "حديث الفضل بن شاذان عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع)".

سورة العنكبوت، الآية: 45.

سورة المزمّل، الآيات: 1 - 5.

الله أكبر

يبدأ المصلي مناجاته بهذه الجملة، ولأجل الدخول في عمل عظيم يوضع مدخل مفعم بالعظمة.
- الله أكبر - من أن يوصف، أكبر من أن يقاس بالأرباب المتخذة على مرّ العصور، أكبر من جميع القدرات والقوى التي يمكن أن يخشاها الإنسان أو يطمع فيها، وأكبر من أن يتمكن شخص من نقض قوانينه.
إذا أدرك العبد هذه السنن، وانتخب في ضوئها طريق سعيه وجده، فأى قوة عجيبة يحتويها عند استنكاره أن - الله أكبر -، وأى أمل مفعم يعيشه! إنه يشعر بشكل كامل بأن جهوده كانت موفقة، وأن عاقبة عمله خير، وينظر إلى مستقبله وطريقه بسعادة وأمل.
بعد تلفظ هذه الجملة يكون المصلي عملياً في حالة صلاة، وعليه أن يقرأ سورة الحمد وبعدها سورة كاملة من القرآن واقفاً.

سورة الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الجملة هي مفتاح جميع السور، مفتاح الصلاة، مفتاح جميع أعمال وحركات الإنسان المسلم؛ إن بداية جميع الأعمال تتم باسم الله فقط.
كل ما للإنسان، وجميع مظاهر كونه على قيد الحياة باسم الله، يفتتح المسلم يومه باسم الله وباسمه يختم سعيه في النهار، وبذكرة يذهب إلى فراشه، وبعونه يرفع رأسه منه ليبدأ أعماله اليومية من جديد، وفي نهاية المطاف يودع الحياة باسمه وذكره ويتجه إلى الدار الخالدة.

الحمد لله رب العالمين

كل حمد وثناء يختص بالله، لأن جميع ما هو عظيم منه، والرحمة كلها تصدر عنه، هو مجمع كل الخصال الفاضلة، ومنه تتبع كل الحسنات والاحسانات؛ فيكون حمده إذن حمداً للإحسان، وموجهاً لجميع الجهود التي تبذل في طريق الإحسان.
على كل من يرى في نفسه خصلة من الخصال المحمودة أن يعدها من فيض الله ورحمته وعطفه ولطفه، إذ إن الله هو الذي أودع فطرة الإنسان بذور الإحسان، وجعل من سجايه تقبل الإحسان والفضيلة، ومنحه القدرة على التصميم، وهو وسيلة أخرى في طريق الطيبة والإحسان.
إن هذه الرؤية تغلق بوجه الإنسان أبواب العجب والغرور، وتحول دون تعطيل الخصال الحميدة، والقدرات الخيرة فيه.

وفي جملة (رب العالمين) نستشعر وجود العالم والعوالم الأخرى وترابطها؛ فيحس المصلي أن وراء هذا العالم ووراء رؤيته الضيقة، وخلف هذا الطوق الذي افترضه لحياته، توجد عوالم وأفلاك ومجرات أخرى، وأن ربّ جميع هذه الكائنات. إن هذا الشعور يميت فيه النظرة الضيقة، القصيرة المدى، ويمنحه الجرأة وروح التنقيب والبحث، والإحساس بالغرور لعبوديته لله تعالى، وتبدو له عظمة عبادة الله وجلالها العجيب.

من جهة أخرى يرى جميع الكائنات؛ البشر والحيوانات والنباتات والجمادات والسموات، وعوالم الوجود التي لا تحصى، كلها مخلوقات لله، وأتة هو مديرها ومدبرها، ويفهم أنّ ربّه ليس فقط رب لعرقه أو شعبه أو للإنسانية بأجمعها، بل هو أيضاً رب تلك النملة الصغيرة وتلك النبتة الضعيفة، ربّ السموات والمجرات والكواكب. وبإدراكه لهذه الحقيقة يشعر بأنّه ليس وحيداً، ويعلم أنّه متصل بجميع ذرات العوالم، وجميع الكائنات الدقيقة والكبيرة، وبجميع الناس، وإنّ الناس إخوته والمسافرون معه، وإنّ هذه القافلة العظيمة متجهة بأجمعها نحو هدف واحد.

إن هذا الارتباط والاتصال يجعله يرى نفسه مكلفاً وملتزماً بالنسبة لجميع الكائنات، مكلفاً بهداية الناس ومعونتهم، وبمعرفة بقية الموجودات واستخدامها في الطريق الصحيح والمناسب للهدف من خلقها.

الرحمن الرحيم

رحمة الله العامة تتخذ شكل قوى خلاقية وقوانين منفذة ومصادر للطاقة منشورة على رؤوس جميع الكائنات، وكل شخص يحظى بهذه الرحمة إلى أن يحين أجله. وأمّا رحمته الخاصة، رحمته هدايته ومعونته، رحمة جزائه وعطفه، فإنّها تشمل العباد الصالحين؛ هذه الرحمة في هذه النشأة تبقى خطأً واضحاً على امتداد هذه الموجودات الصالحة والشريفة حتى الموت وبعد الموت إلى القيامة، وإلى حد المنزل النهائي لوجود الإنسان. الله - إذن - مصدر رحمة عامة ومؤقتة، ومصدر رحمة خاصة ودائمة.

ذكر صفة رحمة الله في ديباجة القرآن وفي بداية الصلاة وبداية كل سورة دليل على رأفة الله وعطفه، وهي أظهر صفة في ساحة الخليفة والوجود، وعلى عكس قهره ونقمته التي تصيب المعاندين والمفسدين والمجرمين خاصة، تكون رحمته شاملة وعمامة.

مالك يوم الدين

يوم الجزاء يوم النهاية والمصير والعاقبة، الجميع يسعى من أجل العاقبة، الماديّ والعاقد مشتركان في هذا الأمر، كلاهما يبحث عن طريق المصير والعاقبة، وإنّما يختلفان في أنّ كلّ واحد منهما يفهم المصير بشكل مختلف؛ فعاقبة المادي هي ساعة أخرى ويوم آخر وسنة أو عدّة سنين أخرى، شيخوخة وكهولة وفناء؛ وأمّا العابد فنظرتة واسعة ورؤيته أبعد من ذلك، وليست الدنيا في نظره مغلقة ومحدودة ومصورة، بل الدنيا واسعة والمستقبل غير محدود، وهذا مستلزم لأمل غير مجذوذ، وجهد لا يعرف الملل. إنّ الذي لا يرى الموت موجباً لانقطاع الرجاء، بل يرى نتيجة عمله وثوابه متوقفة على الموت، بوسعه أن يستمر حتى آخر لحظة من حياته بنفس الحماس والتحرك الذي ابتدأ به العمل والسعي لنيل رضا الله.

استنكار أنّ الله هو المالك، وصاحب القرار والجزاء يوم القيامة، وهو الذي يوجه المصلي الوجهة الصحيحة، ويجعل لأعماله سمة إلهية، فتصبح حياته بجميع مظاهرها لأجل الله وفي سبيله، ويبدل جميع جهوده وكلّ شيء عنده في طريق تكامل البشرية وتساميها، ذلك أنّه الطريق الوحيد لمرضاة الله تعالى.

ومن جهة أخرى: يحرره من الاعتماد على الأفكار الواهية والأمال الكاذبة، ويقوّي فيه الرجاء الواقعي في العمل. وإنّ النظم الخاطئة والمنحرفة في هذه الدنيا، قد تمكن العناصر الضعيفة المنتهزة للفرص أن تحسن أوضاعها عن طريق الخداع والرياء والكذب، وأن تجني ثمار كذّ الآخرين وكدهم، ولكن في عالم الآخرة حيث يكون الله العالم العادل مالكاً زمام الأمور جميعها، وحيث لا يمكن الخداع والكذب والرياء، فسوف لا يحصل أحد على شيء دون عمل.

إلى هنا ينتهي الحديث عن النصف الأول من سورة الحمد المتضمن لحمد خالق العالمين، وذكر أهم صفاته. أما النصف الثاني المشتمل على إظهار العبودية وطلب الهداية، فإنه يشير بوضوح إلى جزء من أهم الخطوط الأساسية لأيدولوجية الإسلام.

إياك نعبد

أي أنّ وجودنا بأجمعه وجميع قدراتنا الجسدية والروحية والفكرية هي بيد الله وهي خاضعة له ولأجله. إنّ المصلي بتلفظه هذه الجملة يفكّ قيود عبودية غير الله عن يديه ورجليه ورقبته، ويجيب داعي الله ويرفض مدّعي الألوهية الذين كانوا على مرّ التاريخ السبب في جعل شريحة كبرى من البشر مقيدين بأغلال العبودية والاستضعاف والأسر، ويقرب نفسه وجميع المؤمنين بالله أكثر إلى طاعة الله والانصياع لأوامره. والخاصة أنّه بقبوله العبودية لله يتحرر من جميع العبوديات الأخرى وبذلك يسلك نفسه في سلك الموحدين الحقيقيين.

إنّ الاعتراف بأنّ العبودية منحصرة بالله فقط هو واحد من أهم الأصول الفكرية والعملية في الإسلام وجميع الأديان السماوية، والذي يعبر عنه (انحصار الألوهية بالله)، أي أنّ الله فقط هو الذي ينبغي أن يكون معبوداً، وأن لا يعبد أحد سوى الله.

لقد كان هناك دوماً من لا يفهمون هذه الحقيقة بشكل صحيح، فكانوا يستنتجون منها أموراً خاطئة ومحدودة، ولذا وقعوا غافلين في عبودية غير الله؛ إنهم ظنّوا أنّ عبادة الله تكون فقط بتقليده ومناجاته، وبما أنّ هؤلاء كانوا يصلّون لله ويناجونه فقط، فكانوا على يقين كامل من أنهم لم يعبدوا سوى الله.

إنّ الوعي هو معنى العبودية الواسع في مصطلح القرآن والحديث، والذي يوضح هناك هذا التصور: إنّ العبادة في اصطلاح القرآن والحديث عبارة عن (الطاعة والتسليم والانقياد المطلق) للأمر والقانون والنظام الذي يوجّه للإنسان في أيّ مقام أو قدرة، سواء كان هذا الانقياد وهذه الطاعة مع التقديس والمناجاة أم من دونهما.

وعلى هذا فكلّ الذين ينصاعون للنظم والقوانين والأوامر الصادرة من أية قدرة غير الله تعالى، هم عباد تلك الأنظمة والموجودون لها، ولو أنّه ترك بعضاً من شريعة الله، وعمل ببعض آخر. وأما من لا يعمل البتة بقانون الله سبحانه، فإنّه سيكون كافراً متجاهلاً الحقيقة الواضحة والساطعة لوجود الله، منكراً إياها اعتقاداً أو عملاً.

وبالاطلاع على هذه الرؤية الإسلامية يمكن الوقوف بسهولة على أنّ الأديان السماوية التي كان أول شعار ترفعه كلمة "لا إله إلا الله" ماذا كانت تقول؟ وماذا كانت تريد؟ ومن كانت تواجه؟.

إنّ هذه الحقيقة (حقيقة معنى العبادة) في المصادر الإسلامية (القرآن والحديث) من التواتر بمكان لا يبقى معه أيّ شك أو تردد لدى المتدبرين والعلماء، ولأجل المثال نكتفي بذكر آية من القرآن الكريم، وحديث عن الإمام الصادق (ع).

قال تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو}.

وسئل الإمام الصادق (ع) عن تفسير قوله تعالى: {والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى}. قال (ع): "أنتم هم. ومن أطاع جباراً فقد عبده".

وإياك نستعين

لا ننتظر من منافسك ومدّعي الألوهية أيّ مساعدة أو معونة، ذلك أنّ السبب الذي دعا هؤلاء لرفض ألوهية الله يجعلهم لا يساعدون عباده السائرين على صراطه. إنّ طريق الله هو طريق أنبيائه، طريق الحق والعدل والتآخي والتضامن والتعايش بين جميع أفراد البشر، واعطاء الإنسان قيمته، ورفض التعصب والظلم والتمايز. وأمّا أصدقاء الله ومدّعو الربوبية فقد وضعوا جميع مخططاتهم في حياتهم الدنيئة وما سرقوه من ثروات في تهديم القيم والمقدّرات الأصيلة؛ فكيف يمكن أن يمدّوا يد العون والمساعدة لعباد الله؟! إنّ هؤلاء حرب لا هوادة فيها على عباد الله.

فإذن نطلب العون من الله فقط؛ من قوّة الذكاء والإرادة التي أودعها فينا، من الأسباب والوسائل التي وضعت بأيدينا، من السنن والقوانين الطبيعية والتاريخية التي لو عرفت أمكن أن تكوّن الطريق المشرع بوجه العلم والعمل، ومن جميع المنح والقدرات التي تعدّ من جيوشه المقتدرة الموضوعة في خدمة البشر.

اهدنا الصراط المستقيم

لو كان الإنسان محتاجاً إلى شيء أهم وأولى من الهداية، فلاشك أنّ هذا هو ما ذكر في سورة الحمد، وهي ديباجة القرآن والقسم المهم في الصلاة بلسان الدعاء والطلب من الله. بالهداية الإلهية يقع العقل والتجربة في الطريق الصحيح والمفيد والمنجي، ودون ذلك يغدو هذا العقل والتجربة مصباحاً في يد قاطع الطريق أو شفرة بيد المجنون.

اهدنا الصراط المستقيم، هو ذلك المخطط الفطري، البرنامج الذي وضع على أساس من الاستنتاج الصحيح لاحتياجات الإنسان الطبيعية وإمكاناته وقدراته، الطريق الذي مهده أنبياء الله للناس، وكانوا هم أوائل الباحثين والسابقين إلى الحقيقة، الطريق الذي إن استقر الناس فيه يكون مثلهم كالماء الذي يجري مستقيماً في مجراه ويتجه ذاتياً ودون استعانة بقوّة أو قدرة نحو هدفه النهائي، ألا وهو بحر التسامي الإنساني المتلاطم، برنامج لو اتخذ قالباً للنظام الاجتماعي وطبّق في حياة البشر لجلب لهم - حقاً - الرفاه والاستقرار والحرية والتعاون والتكافل والإخاء، ولوضع حدّاً لجميع المآسي البشرية المزمّنة.

ولكن ما هو هذا البرنامج وهذا الطريق؟ الكلّ مدّع في هذا السوق المزدهم، ويرى كل فريق غيره على خطأ، فيجب أن تحدد الإشارة المناسبة لهذه الديباجة القصيرة للصراط المستقيم من وجهة نظر القرآن، لذا تستمر السورة بهذا النحو:

صراط الذين أنعمت عليهم

من هم أولئك الذين شملتهم نعمة الله وحصلوا عليها؟ لا شك في أنّه ليس المراد من النعمة المال والجاه واللذة المادية؛ إذ إنّ أبرز أمثلة الحاصلين عليها هم دائماً من ألدّ أعداء الله وخلقه، بل المراد بها نعمة أكبر من هذه الزخارف؛ إنّها نعمة اللطف والعناية وهداية الله، نعمة معرفة القيمة الواقعية للنفس واستعادة الذات.

وفي موضع آخر عرّف القرآن الكريم الحاصلين على هذه النعمة: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين...}.

فإذن يطلب المصلي في هذه الجملة من الله أن يهديه إلى صراط الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وهذا خطّ واضح على طول التاريخ، وهو طريق لاحب ذو هدف معيّن وسائرون معروفون.

وفي مقابله خطّ آخر، وهو واضح أيضاً، وله أتباع مشخصون، وبذكر ذلك الطريق وسالكيه يهيب المصلي بنفسه ويحذّرها أن تطأ ذلك الطريق أو أن تتحرف نحوه، وهذا ما بيّنه في تنمة الدعاء السابق بهذا الشكل.

غير المغضوب عليهم

من هم الذين غضب الله عليهم؟ هم الذين وضعوا أقدامهم في الطريق الآخر المخالف لطريق الله وجرّوا الكثير من الناس الآخرين الغافلين من فاقدى الإرادة والضعفاء أو الواعين ولكنهم أجبروهم بالقوة على السير في هذا الطريق. إنّ الذين أمسكوا على طول التاريخ بزمام أمور الناس عن طريق القهر والجبروت والخداع والنفاق، وصنعوا منهم كائنات مجبرة وآلات تابعة (مستضعفة)، الذين أعدّوا وفسحوا المجال للزذيلة والعلاقات الداعرة عن طريق استغلال الناس والتسلط عليهم.

بعبارة أخرى: إنّ الأشخاص الذين صاروا مورداً لغضب الله هم الذين سلكوا طريق الضلال، لا عن جهل وغفلة، بل عناداً، وبسبب الأنانية وحبّ الذات.

في الواقع التاريخي كانت هذه المجموعة تتشكل من الطبقات الغنية والمقتدرة، التي كانت دائماً مستهدفة من قبل الفصائل الدينية، وكانت أهداف الدين ترسم خطّ بطلان فلسفة وجودهم، وكانت أول خطوة تخطوها تلك الفصائل هي خطوة الاعتراض عليهم.

وغير هاتين المجموعتين: مجموعة المهديين ومجموعة المغضوب عليهم، هناك أيضاً مجموعة ثالثة ينتهي بها الطريق إلى نفس ما ينتهي إليه المغضوب عليهم. الجملة التالية تشير لهذه المجموعة من الناس:

ولا الضالين

الذين سلكوا عن جهل وغفلة - متابعين لأسيادهم المضلين - طريقاً غير طريق الله والحقيقة، في حين أنّهم كانوا يظنون أنّهم سائرون في الطريق الصحيح، مع أنّهم يخطون في طريق خطر، ويتجهون إلى نهاية مرّة. هذه المجموعة أيضاً يمكن مشاهدتها في التاريخ بوضوح؛ إنهم كل الذين كانوا يمثلون لأوامر أسادهم في النظم الجاهلية، ويطيعونهم إطاعة عمياء، وكانوا من أجلهم يخطون الذين ينادون بالحق والعدل ويهتفون بدين الله، وحتى إنّهم يقفون بوجههم أحياناً، ثم لا يسمحون لأنفسهم ولو لحظة واحدة لأن يجددوا فيها النظر بهذا الطريق الذي سلّوه عن جهل.

ونحن نسمي هذا الأمر جهلاً لأنّه يحقق مصالح الطبقات المستكبرة، ويدمر هؤلاء الضالين أنفسهم؛ وعلى العكس فإنّ دعوة الرسل تستأصل شأفة الفئنة المغضوب عليها وتعمل طبقاً لأجل الطبقات المحرومة والمستضعفة، ومن ضمنها هؤلاء المغفلون.

إنّ المصلي باستذكاره الحالتين حالة (المغضوب عليهم) وحالة (الضالين) تنشأ لديه حالة الحساسية والدقّة في تحديد الطريق الذي ينبغي أن يسلكه، والموقف الذي يجب اتخاذه تجاه الصلاة المنقذة التي يدعو إليها الأنبياء، وعندها إذا رأى في سلوكه الحياتي علاقة تدلّ على الرشد والعتور على الطريق، يلهج ثانية شاكراً لهذه النعمة الكبيرة قائلاً: {الحمد لله رب العالمين}.

وبذلك ينهي جزءاً مهماً في الصلاة.

كانت هذه بداية القرآن التي تلاها (فاتحة الكتاب).

ديباجة القرآن – كديباجة كل كتاب – تعطي صورة عامة لمجموع معارف الكتاب، فكما أنّ الصلاة خلاصة وصورة مصغرة للإسلام، أشير فيها إلى الكثير من الجوانب والنقاط البارزة لأيدولوجية الإسلام، فإن سورة الفاتحة أيضاً هي فهرست للنقاط البارزة والخطوط العريضة لمعارف القرآن والمشملة على خلاصة التوجيهات المهمة فيه، ولذا:

فإنّ العالمين والعالم شيء واحد متصل أنشأه ذلك الإله {رب العالمين}. كل شيء وكل شخص واقع تحت رحمة الله وعطفه، وأمّا المؤمنون فلهم رحمة ولطف خاص منه: {الرحمن الرحيم}.
إنّ حياة الإنسان مستمرة بعد هذا العالم، وإنّ الحاكمية المطلقة هناك لله: {مالك يوم الدين}، وعلى الإنسان أن يتحرر من عبودية غير الله، وأن يحيا تحت ظل رعاية الله، بالخصائص الإنسانية وفي طريق الإنسانية، حرّاً مختاراً: {إياك نعبد وإياك نستعين}.

عليه أن يلتمس طريق السعادة والصراف المستقيم في حياته من الله: {اهدنا الصراط المستقيم}، عليه أن يشخّص جهة الأعداء والأصدقاء، وأن يتعرف أفكارهم واستراتيجيتهم ليحدد موقفه من كلتا الجبهتين بما يمليه عليه إيمانه: {صراط الذين أنعمت عليهم...}.

سورة التوحيد

بعد إتمام هذه المناجاة المربية المليئة بالمحتوى، على المصلي أن يتلو سورة كاملة من القرآن. هذه التلاوة جزء من القرآن ينتخبه المصلي بحريته وإرادته، يفتح بوجهه فصلاً آخر من المعارف الإلهية الإسلامية.

فريضة تلاوة القرآن في الصلاة – كما قال الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في حديث الفضل بن شاذان: إنّما أمر الناس بالقراءة في الصلاة لتلا يكون القرآن مهجوراً مضيقاً ويكون مدروساً ولا يضمحل ولا يجهل. نكتفي هنا بالإشارة إلى سورة التوحيد المتعارف تلاوتها في الصلوات.

بسم الله الرحمن الرحيم

قل

يا أيها الرسول واعتقد وبلغ الآخرين بهذه الحقيقة.

هو الله أحد

ليس له شريك ولا مثيل ولا منافس كالذي تعرفه عقائد الأديان المنحرفة.
ليست ساحة الخليفة مسرحاً لتنازع الآلهة وحرهم، بل إنّ جميع سنن العالم وقوانينه صادرة عن إرادة واحدة وقدرة واحدة، ولذا يسود عالم الخليفة النظام والاتساق؛ فجميع القوانين والتحولات والتحركات الطبيعية في العالم تتحرك باتجاه واحد. الإنسان وحده – الذي منّعه الله بالإرادة والاختيار والقدرة على التصميم – يمكنه أن يتمرد

على هذا النظام ويعترف لحنأ شاذاً مخالفاً للعرف الجماعي، كما يمكنه أيضاً أن يصنع لنفسه حياة تتسجم مع قوانين الوجود.

الله الصمد

ليس الله بحاجة إلى شيء أو أحد، فأنا أتواضع أمامه وأعظمه وأحمده ليس كباقي الأرباب المحتاجة في إيجادها واستمرارها في الحياة وقدرتها إلى رعاية غيرها، فإن إلهاً كهذه لا يستحق التكريم والتعظيم من قبل الإنسان، إذ إنّه موجود كالإنسان أو أدنى منه؛ فالإنسان هذا الموجود العظيم والعميق لا ينبغي له أن يعظم سوى قدرة ليست محتاجة لأدنى احتياج إلى أي وجود وأي عنصر، لأنّ وجودها وقدرتها وخلودها نابع من ذاتها.

لم يلد

إنّه ليس كما ذكرته الأديان الخرافية والمنحرفة والعقائد المشركة، ليس إله المسيحيين والمشرّكين الذين تصوروا له ولداً أو أولاداً؛ إنّه خالق كل شيء وكل شخص، لا أنه أبوهم، بل كلّ سكان السموات والأرض هم عباده لا أولاده.

إنّ نسبة الربوبية والعبودية بين الله والإنسان هي التي تمنع عباد الله الواقعيين من عبادة أي شيء أو أحد غير الله، إذ إنّ عبادة إلهين غير ممكنة.

إنّ الذين جعلوا الله أباً عطوفاً للخلائق، وأن البشر هم أولاده، لم تتّضح لهم حقيقة عبودية الإنسان لله، وإنّها مقام تكريم لهذا الإنسان؛ إنهم في الحقيقة قد فتحوا طريقاً لعبادة غير الله، وأصبحوا عملياً عبيداً للكثير من أرباب الدنيا ممّن نزعت منهم المروءة، وصاروا آلة بيد النخاسين من باعة الرقيق.

ولم يولد

فهو ليس حادثاً لم يكن في وقت ثم جاء إلى ساحة الوجود، وليس هو وليد أحد أو فكرة أو اعتقاد، وليس وليد نظام أو طبقة أو شكل من أشكال حياة البشر؛ إنّه أكرم الحقائق وأسماها، إنّه حقيقة أزلية، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد.

ولم يكن له كفواً أحد

ليس له مثيل ولا يمكن أن يشبهه شيء، لا يمكن تقسيم مناطق نفوذه ومناطق حكمه (وهي عالم الكون بأجمعه) بينه وبين شخص آخر، ولا يمكن أن يكون جزء من حياة الإنسان له والآخر لغيره من الأرباب الأحياء وغير الأحياء، ومن مدعي القدرة والألوهية.

هذه السورة هي منجّهة تعرف المسلمين وجميع العالمين الإله الذي يستحق العبادة والتمجيد بنظر الإسلام، وأنّ الإله الذي لا يكون أوحده، ويكون له مئات وآلاف المشاكليين في العالم، ليس جديراً بالربوبية والألوهية؛ إنّ القدرة المحتاجة لاستمرارها إلى موجود آخر لا يمكن ولا ينبغي أن تفرض على البشر. إنّ الذي يعظم الأرباب الواهية المحتاجة والمحدثّة والزائلة وينحني لها يسحق كرامته الإنسانية ويسقط نفسه والإنسانية. هذه هي الجهة الإيجابية في سورة التوحيد التي تستعرض مميزات المعبود وربّ الإنسان، وتثبت بطلان الأرباب على طول التاريخ.

ومن جهة أخرى، تحذر عباد الله والمسلمين من تدنيس أنفسهم بالنظر الفلسفي الذي يوّد الشبهات والوساوس بشأن ذات الله وصفاته، وأن يذكروا الله ويدعوه بكلام بسيط، يمكن به طرد المدّعين والمبطلين من المقام القدسي للربوبية بدلاً من أن يستغرق الإنسان في الفلسفة والذهنيات عليه أن يفكر في الالتزامات النابعة من عقيدة التوحيد.

وكما جاء في حديث الإمام علي بن الحسين (ع): "إن الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل الله تعالى {قل هو الله أحد} والآيات من سورة الحديد إلى قوله: {عليم بذات الصدور}، فمن رام وراء ذلك فقد هلك".

كأنما تقول هذه السورة {قل هو الله أحد} للمصلي: إنّ الله قدرة فريدة وعالية، وهو مستغن ذاتاً وغير محتاج {لم يلد ولم يولد} وليس له مشابه ومشاكل و... هذا وكفى. والعلم والرؤية والحكمة وباقي صفات الله التي يكون فهم المسلم لها واجباً، وتكون مؤثرة في حياته وعروج روحه، ذكرت أيضاً في آيات أخرى من القرآن، ولا تتعمق أكثر من هذا في ذات الله وكيفية صفاته. إنك ستحصل على معرفة أكثر خلال العمل. لا تتصور أنك ستحصل على معرفة أكثر بالبحث والتنقيب الذهني العميق، بل حاول تحصيل المعرفة عن طريق التحلي بالصفاء وروحانية الباطن والروح عن طريق العمل بمسئلتات التوحيد. وهكذا كان الأنبياء والصدّيقون؛ إنهم عباد الله الحقيقيون، والموحدون والصادقون والعارفون.

{ورحمتي وسعت كل شيء} - سورة الأعراف، الآية: 156 - "يا من سبقت رحمته غضبه" (دعاء مأثور).

يرجع إلى سورة الأعراف، الآيات: 59 - 158، وسورة هود، الآيات: 50 - 84، فقد نقل عن عدد من كبار الأنبياء أنّهم رفعوا هذا الشعار في طليعة دعوتهم.

سورة التوبة، الآية: 31.

سورة الزمر، الآية: 18.

النساء: 69.

تفسير نور الثقلين: ج5/ص481.

بيّن هذا الأمر في عدة آيات من القرآن بصيغة مليئة بالمعاني وبمناسبات شتى من بينها: سورة الشعراء، الآيات:

91 - 102، سورة ص، الآيات: 58 - 61، سورة إبراهيم، الآيات: 21 - 22، سورة غافر، 47 - 48.

قيل باستحياب التلفظ بهذه الجملة عند الفراغ من سورة الفاتحة.

نور الثقلين: ج5 نقلاً عن أصول الكافي

التسبيحات الأربعة

قبل أن ندخل في بيان الذكر في الركوع والسجود، نوضح الجمل التي يرددها المصلي في الركعتين الثالثة والرابعة قائماً، هذه الجمل هي أربعة أذكار تنطق بأربعة حقائق عن الله تعالى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

لمعرفة هذه الخصوصيات الأربع تأثير عميق في تكون فهم صحيح وكامل عن التوحيد؛ إذ إن كل واحد من هذه الأذكار يعدّ مثلاً لعقيدة التوحيد.

تكرار هذه الجمل ليس من أجل زيادة المعلومات الذهنية للإنسان واطلاعه فقط، بل إن أعظم فوائد العلم بصفات الله وخصوصياته وتكرار ذكرها هو أنها تبعث في الإنسان الحركة والمسؤولية، وتجعله مكلّفاً تجاه تلك الحقيقة التي أدركها.

بشكل عام يجب أن تكون العقائد الإسلامية خارج الذهن وفي مسرح الحياة منشأً للعمل والحركة، إذ إن هذه العقائد لا تستمد أهميتها واعتبارها من جنبتها الذهنية والتجريدية، بل إن أغلب ذلك مستمد من جهة كونها ناظرة إلى حياة الإنسان وسلوك الفرد والمجتمع؛ صحيح أن كل عقيدة إسلامية معناها معرفة حقيقة معيّنة، ولكن إنما يجب الاعتقاد بها فيما إذا استلزمت تعهداً من الإنسان، ووضعت على عاتقه تكليفاً جديداً.

العقيدة بوجود الله من هذا القبيل، فإنّ كلاً من الاعتقاد بوجود الله وعدم وجوده يشكل نمطاً وشكلاً خاصاً في الحياة والعمل؛ إنّ الفرد والمجتمع الذي يعتقد حقاً بوجود الله يحيا نمطاً وشكلاً خاصاً في الحياة، وأمّا الفرد والمجتمع المنكر لهذه الحقيقة فإنه يعيش نمطاً وشكلاً آخر.

إن اعتقد الإنسان أنّه والعالم مخلوق من قبل قدرة الله وعن إرادة شاعرة وحكيمة، فسيؤدي به هذا الاعتقاد إلى اعتقاد آخر وهو أنّ هذا الخلق كان لهدف ولغاية، ويوقن بأنّ له أثراً ومسؤولية لبلوغ هذه الغاية، وهذا الاحساس بالمسؤولية هو الذي يدعوه إلى العمل والجد وتحمل ثقل المسؤولية، ويشعر تجاه ذلك كُله بالرضا ويتقبله عن طيب نفس.

وهكذا الاعتقاد بالمعاد والنبوة والإمامة... كلّها تلقي مسؤوليات وتكاليف على عاتق المعتقد، وتشخص له بأجمعها منهج سيره وحياته.

إن شوهده في الواقع الخارجي من يرون أنفسهم معتقدين بهذه الأصول الفكرية، متساوين مع أولئك الذين ليس لديهم أدنى اطلاع عليها، ولا يعتقدون بها، فما هذا إلا بسبب عدم الاطلاع الكامل أو لعدم تجذّر إيمانهم وتسليمهم. في المواطن الحساسة وفي منعطفات الحياة يمتاز صفّ المعتقدين الواقعيين عن المقلدين الجاهلين والمنتهزين للفرص. وبهذه الرؤية نرجع إلى مفاد الأذكار الأربعة ومحتواها.

سبحان الله

إنّ الله منزّه عن أن يكون له شريك، ومنزّه عن الظلم، وعن أن يكون مخلوقاً، وعن أن يفعل ما هو مناف للحكمة والمصلحة، وعن جميع النواقص والاحتياجات والعيوب الموجودة في الكائنات، وعن جميع الصفات المستلزمة لكونه مخلوقاً أو ممكناً.

بالتلفظ بهذه الجملة وذكر هذه الخصوصية لله يفهم المصلي ويستذكر أنّه أمام أيّ عظيم، ولأيّ ذات حريّة بالتمجيد قام بالخضوع والتعظيم؛ إنه يشعر أنّ تعظيمه وتواضعه أمام الإحسان والكمال المطلق.. هل يشعر أحد

بالحقارة عندما يحترم الطهارة والإحسان والجمال المطلق؟! إنَّ صلاة الإسلام هي التواضع والتعظيم لهذا المحيط المتلاطم للإحسان والكمال والجمال؛ إنَّها ليست خضوعاً يذلُّ الإنسان ويقلل من شأنه وكرامته وعزَّته الإنسانية، وليست مدحاً يذلُّ الإنسان ويحقره. أليس الإنسان كائنًا مدرَكًا للجمال باحثًا عنه؟ إذن، فمن الطبيعي جداً أن يسجد للكمال المطلق، وأن يعبد الذات الواجدة له ويمجِّدها بتمام وجوده؛ هذا التمجيد وهذه العبودية تجذبه نحو طريق الكمال والإحسان والجمال وتجعل حركة حياته في هذا الاتجاه وهذا المسار.

إنَّ الذين يرون العبادة الإسلامية محققة لإذلال الإنسان، وقاسوها بالتقديس للقدرات المادية، قد أغفلوا نكتة دقيقة وهي: إنَّ الثناء على الإحسان والطهارة هو بحدِّ ذاته أكبر دافع ومحفز نحو الإحسان والطهارة؛ هذه النقطة هي التي نستذكرها عندما نتلفظ "سبحان الله".

الحمد لله

إنَّ الإنسان في طول حياته المملَّة كان دوماً، ولأجل الحصول على الفوائد المتنوعة والامتيازات الصغيرة والكبيرة ولأجل البقاء بضعة أيام أخرى على قيد الحياة، وحتى في كثير من الأحيان من أجل الخبز، يلهج فمه بالثناء والشكر على الذين يساؤونه في الخلقة وليس لديهم ما يسمو بهم عليه، ويضحى بنفسه وماله من أجل أسياده، لأنَّه كان يراهم مصدر النعمة، فيستجيب ويرضخ لعبودية سيِّده، عبودية الجسد للروح والفكر! إنَّ استذكار كون جميع المحامد لله يفهم أن جميع النعم لله، فإذن في الحقيقة لا أحد يملك شيئاً ليتمكنه عن هذا الطريق ويحق له أن يسترَقَّ أحداً ويجعله مطيعاً وأسيراً له، ويعلم الأرواح الضعيفة والقلوب المفتونة والعيون المنخدعة بالنعم أيضاً أن لا تحسب رحمة وعطاء الأرباب والأسياد الضئيل شيئاً، ولا تعدّه منهم، ولا تسلم قيادها، أو تتحمل الحرمان من أجله، ولتعلم أنَّ مالكة محتكر له وغاصب ومعتد.

لا إله إلا الله

هذا هو شعار الإسلام الذي يظهر الروبة الكونية والأيديولوجية لهذه العقيدة. وفي هذا الشعار نفي وإثبات. ففي البداية ينفي كلَّ القدرات الطاغوتية وغير الإلهية، ويخلص نفسه من ربة العبودية لكلِّ القوى الشيطانية، ويقطع كلَّ يد أو رجل تجرّه بكلِّ شكل من الأشكال نحو طريق ما، ويرفض كل قدرة غير قدرة الله، وكل نظام إلا النظام الإلهي، وكلَّ البواعث إلا البواعث التي يرتضيها الله. وبهذا النفي العظيم يتحرر من كلِّ ذلِّ وانكسار وقيد وأسر وعبودية.

عندها يحكِّم أمر الله وإرادته التي تتحقق فقط في ظل نظام ربَّاني - يعني أمة إسلامية بالمعنى الحقيقي للكلمة - على وجوده، ويتقبل عبودية الله التي ترفض كل العبوديات الأخرى.

عبادة الله تعني صياغة الحياة طبقاً لأوامر الله الحكيمة، والعيش في ظل نظام ربَّاني رسمت خطوطه العريضة وفقاً لأوامر الله، والتحرك بجميع القوى والجهود الممكنة لإيجاد هذا النظام وهذه السعادة.

وأما النظم الأخرى التي بنيت على أساس من التفكير البشري، بسبب من الجهل وعدم الاطلاع والانحراف الفكري وأحياناً لعدم خلّوها من المطامع، فإنَّها ليست قادرة على إسعاد البشر وإيصاله إلى الكمال الإنساني المطلوب.

والمجتمع والنظام الإلهي فقط هو الذي يمكنه - لكونه نابعاً من حكمة الله ورحمته، منطلقاً من الإحاطة بما يحتاجه الإنسان، قادراً على تلبية هذه الاحتياجات - أن يكون محيطاً مناسباً لنمو هذا البرعم الذي يسمّى بالإنسان.

نحن لسنا أعداءً للنظم الأخرى، بل نحن نشفق عليها؛ هذا كلام الأنبياء وهم آباء البشر المشفقين عليهم؛ إنهم يعلمون بنائي ومهندسي البيوت التي يجب أن تسكن فيها الإنسانية - أي من يشيّدون النظم والمجتمعات - أنّ البشر لا ولن يمكنه أن يسعد إلا في ظل نظام رباني وتوحيدي. لقد اثبت التاريخ وشاهدنا وسنرى ما الذي يتجرعه الإنسان في ظلّ النظم غير الربانيّة، وكيف مسخت الإنسانية، وبأيّ يوم عصيب قد ابتليت!

الله أكبر

وبعد هذا النفي كلّه يشعر الإنسان العادي، الذي مازال متمسكاً بالحقائق الجاهلية، بالغرابة والوحدة؛ فهو من جهة يرى عياناً انهيار الأسس التي كانت تبدو حتى وقت قريب راسخة، ومن جهة أخرى توحى له الجاهلية بأنّها مازالت ثابتة كالجبل؛ نفس الأشياء التي نفاها تعرض له وجودها فتقضّ مضجعه، في نفس اللحظة التي يقول "الله أكبر" من كلّ شيء، من كلّ شخص، من كلّ القدرات والمقتدرين، ومن أن يوصف، هو مهندس السنن والقوانين الكونية للعالم سواء في مجال الطبيعة أم في التاريخ. إذن لا يتيسر النصر النهائي المتوقف على التعاطف مع هذه القوانين والسنن إلا بالتمسك بأوامره، فإطاعته وعبادته هي الجبهة الوحيدة المنتصرة في خضم تاريخ البشرية.

وكان محمد (ص) يدرك هذه الحقيقة جيداً ويؤمن بها من أعماقه ويلمسها، ولذا ثبت بمفرده بوجه جميع الضالين في مكّة، بل بوجه كل العالم، وقاوم بإصرار، كما يتوقع من إنسان بارز في حدود قدرته أن يقاوم، من أجل تخليص قافلة البشر الضالة من التبعية الدليلة للقدرات الطاغوتية وتوجيهها نحو المسار الفطري، ألا وهو مسار التكامل.

إنّ من يجد نفسه ضعيفاً مسلوب الإرادة أمام القدرات البشرية إذا أدرك أنّ أعلى القدرات وأكبرها هو الله تعالى فسوف يطمئن قلبه ويهدأ، وتتوهج في باطنه قوّة فريدة تجعل منه الأفضل والأقوى. هذه كانت خلاصة محتوى ومفاد الجمل الأربع التي تتكرر في الركعتين الثالثة والرابعة حال القيام.

الركوع

بعد إتمام القراءة يدخل المصلي في الركوع، أي ينحني أمام الله؛ القوة الكامنة وراء ذروة التفكير الإنساني في آفاق الخصال الحميدة والعظيمة.

الركوع مثال لخضوع الإنسان أمام القدرة التي يعتقد أنّها أقوى منه. ولأنّ المسلم يرى أنّ الله فوق كلّ القدرات فهو يركع أمامه، ولأنّه لا يرى أيّ موجود غير الله أعلى وأفضل من إنسانيته فو لا ينحني لأيّ شيء أو شخص آخر.

وفي هذه الحالة يظهر أمام الله بمظهر الخضوع ولسانه يلهج بحمد الله وبيان عظّمته.

سبحان ربي العظيم وبحمده

إن هذه الحركة التي تؤدي بشكل متناسق مع ما يلهج به تظهر له وللمن يراه على هذه الحال العبودية لله، وبما أن من يعبد الله لا يكون عبداً لغير الله، فهي تعلن له صراحة حريته من عبودية غير الله.

السجود

من رفع الرأس من الركوع وفي حين التهيؤ لتواضع وخضوع أكثر يهوي إلى الأرض. إنَّ وضع الجبهة على الأرض علامة لأعلى مستوى لخضوع الإنسان، وإنَّ المصلي يرى هذا الحد من نصاب الخضوع يناسب الله، إذ إنَّ الخضوع لله هو خضوع لكل ما هو حسن وللجمال المطلق. ويرى ذلك حراماً وغير جائز بالنسبة لكل شيء وشخص غير الله، إذ إنَّ جوهر الإنسان وهو أثنى بضاعة في متجر الوجود يتحطم بهذه العملية ويغدو الإنسان ذليلاً ومنكسراً، وبينما هو واضع رأسه على الأرض، غارق في عظمة الله، يبرز اللسان قائلاً باتساق تام ما يفسر في الحقيقة عمله ويشرحه.

سبحان ربِّي الأعلى وبحمده

الله الأعلى، الله المنزّه والمطهر، وأمام هذه القوة فقط ينبغي للإنسان أن يلهج بالثناء ويضع جبهته على التراب. فإذا سجدة الصلاة ليست انحناءة أمام موجود ناقص وضعيف لا قيمة له كالهوى أمام الأصنام والقدرات الخاوية، بل هو هوى أمام الأعلى والأطهر والأعز.

إنَّ المصلي بهذه الحركة يعلن بشكل عملي انصياعه لله الحكيم والبصير، وقيل كل شيء يلقن نفسه هذا التسليم والانقياد. إنَّ قبول هذه العبودية المطلقة لله - كما أسلفنا - هو الذي يرفع عن الإنسان قيود عبادة كل شيء وشخص، ويخلصه من الأسر والذلة التي هو فيها.

إن أهم أثر يرتجى من هذين الذكرين (ذكر الركوع والسجود) هو تعليم المصلي أمام أي شيء يجب أن يخضع وينتقي؛ وهذا معناه نفي كل ما عدا الله، وربما يشير إلى هذا الأمر الحديث المنقول عن الإمام (ع): "أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد".

التشهد

في الركعة الثانية وفي الركعة الأخيرة لكل صلاة بعد أن يرفع المصلي رأسه من السجدين يتلفظ بثلاث جمل تبين كل واحدة منها حقائق من الدين، وتسمى هذه العملية المقترنة بالألفاظ (التشهد).

يشهد في الجملة الأولى بتوحيد رب العالمين: "أشهد أن لا إله إلا الله"، ثم يؤكد هذه الحقيقة بهذا النحو: "وحده"، ثم يؤكد ما بنحو آخر: "لا شريك له".

كل ما يجز الإنسان إلى عبادته ويصيره مطيعاً له فهو إله؛ الهوس والميول الحيوانية، أو الشهوات والآمال الإنسانية، أو النظم والمقررات الجماعية وواضعوها وزعماؤها، كل واحدة منها تدعو الإنسان بشكل من الأشكال إلى عبوديتها وتألّيها.

وإن "لا إله إلا الله" نفي لكل هذه الربوبيات؛ والتشهد شهادة من المصلي على هذا النفي، أي أنَّ المصلي يتقبل ويخضع أنَّ الله وحده هو الذي له حقّ الامرة والألوهية عليه، وأن ليس لكل ما سواه حاكمية عليه.

وعندما يعتقد الإنسان بهذا الشيء فسوف لا يحق له هو أيضاً أن يعبد كائناً آخر من قبيل البشر أو الحيوانات أو الملائكة أو الجماد أو الهوى والشهوات النفسية.

وليس معنى ذلك أنَّ الموحد لا يخضع لأيّ التزام في المجتمع، ولا يحكّم أيّ قانون؛ إذ من الواضح أنَّ الحياة الاجتماعية بحسب ماهيتها لا بدّ لها من الالتزام والانقياد، بل بمعنى أنّه لا يقبل أيّ تحكم ونظام لا يستمد من أوامر الله، وهو في حياته الاجتماعية يصغى لأمر الله، وما أكثر ما يقتضي الشكل والنمط الذي يريده الله من أجل

إدارة حياة البشر أن يطيع أشخاصاً ويلتزم بتعهدات. فإذن الامتثال والتعهد بحسب المتطلبات الذاتية للحياة الاجتماعية لا يمكن انفكاكه عن حياة الإنسان الموحد أيضاً، ولكن ليس هذا الامتثال امتثالاً لهوى النفس أو زخرف الحياة والأنايات التي لدى أمثاله من البشر، بل هو امتثال لأمر الله البصير الحكيم، إذ إنه هو الذي يعين المقررات التي يجب اجراءها، والقادة الذين تجب إطاعتهم، وأنهم يحكمون البشر في حدود الأوامر الربانية فقط. إن هذا الأمر الرباني ناظر إلى هذه الحقيقة: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}. وربما من أجل ملاحظة هذه الحقيقة ومتابعة لها يقول المصلي في الجملة الثانية من التشهد: "وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله".

إن قبول محمد (ص) مرسلأ من قبل الله هو في الحقيقة قبول للاستخلاف الإلهي، أي اتباع طريق الله من طريق اتباع طريق محمد، وأخذ أوامره من عبده المجتبي.

كثير من عباد الله أخطأوا في معرفة طريق ما يرضي الله. إن معرفة محمد (ص) وقبول كونه رسول الله، محدد وموجه للجهد والحركة التي ينبغي للإنسان العابد إبرازها، لكي يثبت صحة دعواه عبادة الله. وكان الاستناد على عبودية محمد (ص) في هذه الجملة وتقديم كلمة (عبده) على كلمة (رسوله) أريد التعريف بأهم فضيلة في الإسلام. وحقاً إن الأمر لذلك، فإن جميع الفضائل الإنسانية تتلخص في عبادة الله الحقيقية والاخلاص لله، وكل من حاز في هذا المضمار على سهم أوفر من الجميع، فستكون كفته الإنسانية أثقل ميزاناً من الجميع.

لا حاجة للاستدلال على هذا المعنى بالنسبة إلى الشخص العارف لمفهوم (عبادة الله)، فإن كان معنى عبادة الله هو الخضوع أمام الحكمة والبصيرة والرحمة والإحسان والجمال اللامتناهي، الملازم للتحرر من عبادة النفس وعبودية الغير، فأى قيمة أسمى من هذه يمكن العثور عليها؟ أفليست جميع المساوي والانحطاط والشقاوة والأمور المذلة وانعدام المروءة، وبشكل مختصر، جميع ما هو مظلم، وليد عبودية الإنسان لجموح النفس أو جموح وطغيان المدعين من البشر؟ أفليست عبادة الله تحرق جذور كل عبودية أخرى وتحطمها؟ إن النقطة الدقيقة الموجودة في هاتين الجملتين من التشهد هي التذكير بالتوحيد والنبوة ضمن شهادة من قبل المصلي بوحدانية الله وبرسوله محمد (ص) وعبوديته.

هذه الشهادة في الحقيقة عبارة عن قبوله بجميع الالتزامات المترتبة على هاتين العقيدتين، وكأنما المصلي بهاتين الشهادتين يريد أن يقول: إنني أخضع لجميع التكاليف التي تنشأ من هاتين العقيدتين (التوحيد والنبوة)، ولا قيمة في الإسلام للعلم التافه الفارغ الذي لا يستتبع تعهداً، ولا للاعتقاد الذي لا يكون منتجاً. إن الشهادة على حقيقة بمنزلة الوقوف عليها وقبوله جميع التعهدات والأعمال الناتجة عن العلم بها؛ القبول الناتج من اعتقاد خالص وإيمان فعّال وإيجابي. فإذن تشهد الصلاة في الحقيقة تجديد بيعة من المصلي مع الله ورسوله. الجملة الثالثة من التشهد هي طلب ودعاء "اللهم صلّ على محمد وآل محمد".

إن محمداً وآله الأطهرين (ص) هم العلامات البارزة لهذه العقيدة، وإن المصلي يذكر هؤلاء العظام بلسان الدعاء، وبالصلاة عليهم ليعزز ارتباطه الروحي بهم.

إن أتباع كل رسالة إن لم يجعلوا نصب أعينهم قادة ذلك المذهب الحقيقيين فمن المحتمل جداً أن يضلّوا الطريق، وإن إراءة العلامات الحقيقية هي التي عززت ثبات عقيدة الأنبياء على مرّ الزمان.

يذكر التاريخ كثيراً من المفكرين الذين ابتكروا خطأً ومناهج لتأمين حياة أفضل، توفر للإنسان سعاده، ورسما المدن الفاضلة وخلفوا كتباً ومآثر لهم، ولكن الأنبياء بدل أن يدخلوا في بحوث فلسفية جسّدوا اطروحاتهم عملياً، وصنعوا من أنفسهم وأوائل المعتقدين بهم نماذج تحذى، وبنوا على عواتقهم النظام المطلوب. ولهذا بقي مذهب الأنبياء حياً ولم يبق لمخططات الفلاسفة والمفكرين سوى حبر على ورق.

إنّ المصلي يدعو من أعماق قلبه لمحمد وآله (ص)، وهم خلاصة تبلورات هذه العقيدة، يدعو للذين أفنوا عمرهم وعاشوا مجسدين لهذه العقيدة، وأظهروا للتاريخ إنساناً من الطراز الإسلامي، ويطلب من الله أن يصلي عليهم ويرحمهم، ويعمق ويوثق الاتصال الروحي بينه وبينهم، إذ بإمكانهم كجاذبة قوية جذبه نحو طريقهم والهدف الذي كانوا ينشدونه.

إنّ الصلاة على محمد وآل محمد (ص) هي المجدّدة للأشخاص المخلصين، والنخبة المسلمة. وبتجسيدها هذه الوجوه، وجعلها نصب الأعين، يتمكن المسلم دوماً من معرفة الطريق الذي يجب عليه قطعه ويتهيأ لسلوكه.

سلام الصلاة

إنّ هذا السلام يشتمل على ثلاث تحيات، مع ذكر الله وذكر اسمه، فإنّ تبدأ الصلاة باسم الله وتختتم باسمه، وبين هذه البداية وهذه النهاية طريق حافل بذكر الله، إنّ ذكر النبي أو آله في جملة سيكون أيضاً مصحوباً بذكر الله، بصورة استمداد من لطفه ورحمته.

الجملة الأولى تحية من المصلي للرسول (ص) وطلب الرحمة من الله لذلك العبد المجتبي: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته".

الرسول، مؤسس الإسلام، أي رأس الحركة والجهود التي يستعد المصلي الآن للعمل بها بنفسه؛ هو الذي صرخ بهتاف التوحيد، والذي قلب الدنيا رتيه وأسس الحياة الأفضل للإنسان إلى الأبد؛ هو الذي رسم الخطوط العريضة لوجه النموذج الإسلامي للإنسان، والأمة التي يمكنها أن تكون معهداً لهذا الإنسان. إنّ المصلي يعكس هذا الشعار في صلاته وتعاليمها الضمنية في حياته وأجواء زمانه، ويخطو خطوة خطوة نحو ذلك المجتمع الأفضل وتكوين ذلك الإنسان النموذجي. فإنّ ليس اعتباراً ذكر رسوله وهاديه الذي جعله مرشده في هذا الطريق في نهاية الصلاة بتحية؛ فهذا اللسان يعلن عن حضوره إلى جانبه وفي طريقه.

في الجملة الثانية يسلم المصلي على نفسه وعلى جميع سالكي مسلكه والعباد الصالحين، "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين"، وبذلك يحيي ذكر عباد الله الصالحين في ذهنه ويجعل وجودهم وحضورهم مادة تبعث الاطمئنان في نفسه.

في الدنيا التي انتشرت فيها مظاهر العصيان، والقبائح والدنئات والعداوة والظلم، وتقبل التلوث وعدم التطهر، وطوت كل شخص في المحيط الذي يترأى فيه للإنسان العاقل أن كل شيء ينذر بإفلاس الإنسانية وانهيارها، وإن زبارجها في نظره ليست سوى ألوان ليس لها واقع وراء مظاهر الابتذال والترهات. أجل، في العالم الذي لا يتمكن فيه مدعو الحق والعدالة أن يتستروا على فضائح الأنانيات وطلب الجاه، وحيث لا يمكن التعظيم على مكانة علي والحسين والصادق (ع) بالصخب الخادع الذي يطلقه أمثال معاوية ويزيد والمنصور.

وبشكل مختصر، في العصر الذي يستولي فيه أعوان الشيطان على مناصب رجال الله الصالحين، هل يمكن ترجي إحسانهم وصلاتهم والنظر إليهم بعين الواقعية، وينتظر منهم ما ينتظر من رجال الله؟ فهل يمكننا أن ننظر

شياً سوى المعاصي والآثام والضلال وإماتة الحق بين البشر؟ علينا أن نعترف بأنه لو أمكن ذلك فإنه لا يمكن بسهولة.

إن السلام على عباد الله الصالحين يأتي في هذا الخضم ليعبث الدفء والطمأنينة في القلوب بحضور النور والضيء، ويبشر المصلي بوجود الأنصار والأصحاب؛ يقول له: لست وحيداً، فإن في قلب هذه الصحراء القاحلة توجد براعم مثمرة ومتأصلة يمكن العثور عليها، كما أنه في طول التاريخ كانت المجتمعات المنحرفة رحماً لميلاد الإرادات القوية للرجال البارزين الذين كانوا في النهاية هم المخططين لعالم جديد وواضعي حجر الأساس لحياة جديدة. والآن أيضاً وطبقاً لسنة الله في التاريخ، فإن قوى النور والخير تلك في جدّ وسعي في باطن هذه الدنيا المظلمة والشريرة. أجل إن الصلحاء يعبدون الله بالشكل الذي يناسب عظمتهم ويمثلون أوامره، ويقفون في صف واحد منتظم بوجه الطغاة.

من هم هؤلاء الصالحون؟ وأين هم؟ ألا يجب التعلم منهم والسير إلى جانبهم؟ فعندما يجعل المصلي نفسه في عدادهم، ويسلم عليهم وعلى نفسه في جملة واحدة "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" يسطع على قلبه نور من العزة والافتخار والاطمئنان، ويسعى لأن يكون حقاً في عدادهم، ويشعر بالخجل، إذا لم يستطع أن يسير إلى جانبهم. وهذا يملي عليه تعهداً وتكليفاً جديداً.

كيف هم العباد الصالحون؟ والصلاح في ماذا؟ فليس الصلاح فقط في الصلاة؛ الصلاح أن يتمكن الإنسان من تحمل التكاليف الإلهية الثقيلة، ويعمل بالشكل الذي يكون فيه إطلاق (عبد الله) عليه مناسباً أو منسجماً، تماماً مثل الطالب الممتاز في صفه.

وفي الختام يقول المصلي في الجملة الثالثة مخاطباً هؤلاء العباد الصالحين، أو مخاطباً - الملائكة، أو مخاطباً المصلين: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، وبذلك يستذكر مرة أخرى الصلاح والاستحقاق للصفات الملائكية أو الاتصال بباقي المصلين، يذكر المخاطبين الأعداء بدعاء الخير وينهي صلاته. والحمد لله رب العالمين.

وبالإمكان أيضاً استبدال هذا الذكر بقول "سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله".

بالإمكان أيضاً أن تقول ثلاثاً: "سبحان الله".

سفينة البحار (ج1) مادة سجد.

يلتفت إلى آيات من قبيل {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه} سورة الجاثية/ الآية (23)، و{ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً} و{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} سورة التوبة/ الآية (31) و{وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري} سورة القصص/ الآية (38)، وروايات من قبيل {آلهتهم بطونهم}.

التدقيق في هذه الآيات والروايات من قبيل: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} سورة النساء/ الآية (80) {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} سورة المائدة/ الآية (55). "وانظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر... و"العلماء أمناء الله على خلقه... يمكن أن يكون موضعاً للحدود التقريبية لهذه الحقيقة.

سورة النساء/ الآية (59).

يمكن أن يقتصر على الثالثة فقط، إذ إن الأوليين مستحبتان.

وكانه بعنوان درس لتحصيل صفات الملائكة